من الخزانة الشرقية

بقلم هيب زيات

دفائن الخزائن

ديوان محمد بن نصر القيسراني

الغربات

في دار الكتب المصرية مجلد صغير لا يتجاوز ٤١ ورقة في كل صفحة منها ١١ سطرًا بخط واضح جميل تتضاعف به لذة القراءة لولا ما ينغّصها احياناً من اختزام الأرضة بعض الالفاظ ولا سيما في اسافل الصفحات وانتثار سلك النظم بضياعها وفي ما يلي الصفحة البيتين نقص يسير لا يدرى مقداره بالتحرير لعدم رقم الديوان قبل التجليد ومما يزيد في قيمته ما ورد في آخره : « هذا ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره » فلدينا اذن صفوة شعر القيسراني كما كان يراه هو بنظره الثاقب وصاحب البيت ادرى بالذي فيه ولا شيء في الختام يدل على اسم كاتبه او ناسخه وقد ذكر ابن خلكان انه ظفر بديوانه في حلب ونقل منه اشياء حسنة رائقة (وفيات الاعيان ١ : ٣٩١ طبعة ١٢٩٩) وممن نقل عنه ايضاً ياقوت في معجم الادباء (٧ : ١١٢ — ١٢١) وعماد الدين الاصبهاني الكاتب (خريدة القصر رقم ٣٣٢٩ من خزانة باريس).

واول المجلد في الدار (رقم ١١٨٤ ادب):

« قال محمد بن نصر بن صغير القيسراني يمدح الوزير الاجل جلال الدين صدر الاسلام ابا الرضى محمد بن صدقة انشده اياها بالجزيرة سنة سبع وثلاثين وخمسمائة :

في طاعة الحب ما انفقت من عمري ... وفي سبيل الهوى ما شاب من شعري

(٣٥ بيتاً ص ٢ — ٧) وتليها امداح اخر لبعض الوزراء والقضاة والكبراء استغرقت سائر الصفحات ٨ الى ٤٨ لا تنقل منها شيئاً لضيق المقام بها هنا وتليها اوصاف واغزال قليلة تبلغ ٤٥ بيتاً ختمها بقوله في مجلس ارتجالاً وقد سُئل ان يعمل على وزن ابن هانئ المغربي : « الصبر حيث الكلة السيراء » فقال:

أرأيت ما فعلت بنا الصهباء من حيث تسبي العقل وهي سباء

(١٩ بيتاً ص ٥٣ — ٥٥) وتأتي بعدها مقاطيع عملها عند قفوله من العراق الى الشام يتشوق فيها السكن والوطن وذلك سنة سبع وعشرين وخمسمائة نختار منها قوله في الانبار وفيه شاهد على انه كان مقيماً في دمشق وفيها توفي سنة ٥١٨ ودفن بمقبرة باب الفراديس :

أقمت بالانبار ذا لوعة مقسومة بين حبيبين
اشتاق اهلي بدمشق وفي بغداد حظ القلب والعين
ففي لقائي ذا فراق لذا قل لي متى اخلو من البين (ص ٥٥)

وقد اكثر في هذه المقاطيع من الحنين الى الشام والتحسر على فراق بغداد فقال حين مرّ بجوراح[1] وسُوَى :

احب الشام واهوى العرا قَ فخلفي هوى وامامي هوى
فيا مشر الشام اشكو النوا مَ اليكم فهل عندكم من دوا

وقال ايضاً حين مرّ بديار بني عدي :

مررنا في ديار بني عدي يجاذب لوعتي شرق وغرب
يقيمني بارض الشام حب ويسطفني على بغداد حب
غرام طارف وهوى تليد لكل صبابة في القلب شعب
ولا وأبيك ما هوّمت الا سرى لي خيال لا يغب
فكل هوى يطالبني بقلب وهل لي غير هذا القلب قلب (ص ٥٩)

وقال ايضاً لما نزل بالزواجر :

ولما نزلنا بالزواجر هاجني خيالان منها مُعرق وشآمي
فبتُ وهذا آخذ بشكيتي اليه وهذا جاذب بزمامي
تجاذبني الاهواء شرقاً ومغرباً فقلبي ورائي تارة وامامي
وتسألني الحسناء عن طول غيبتي فقلت لها عمّ لديك بسام
تباعد عن ذات السوارين روحتي فلم يبقَ من لياه غير لمام
فها انا ان بغداد هاجت صبابتي بعثت الى دار السلام سلامي (ص ٥٩—٦٠)

---

١) راح قاع في طريق اليمامة الى البصرة (معجم البلدان ٢ : ٧٢٩ طبعة اوربة) ذكره ابو فراس فقال :

لقد اخذ السُرى والليل منا فهل لك ان تريح بجوّ راح
(ديوانه طبعة الدكتور دهان ٢ : ٦١)

وسُوى اسم ماء لبهراء من ناحية السماوة (معجم البلدان ٣ : ١٧٣)

ومن ذلك ايضاً :

أنت ظلم يفض المقام لبانة ... وسرت وقلبي عندكم غير سائر
اسائل اعلام الساوة عنكم ... فيخبرني عن بعدكم حجر حاجري
فما رأيت الوجد ليس بناقصي ... زحرت فزادني شكم الزواجر
وآنس مني لوعة القلب صاحبي ... فأسبل ماء الدمع بين المحاجر (ص ٦٠)

وهذه الابيات تدل على انه كان كثير التنقل لا تستقرّ به حال من القلق وانه وان كان عكاوي المولد حلبي المنشأ والتأدب بغدادي المثوى والمقام ظلّ دمشقي الدار الى يوم وفاته وكان قد عرضت له حاجة في انطاكية سنة ١١٥٥/٥٤٠ فدخلها وطاف بسككها واحيائها وغشي بيوت لهوها وحاناتها وجالس قيانها وطرب لسماع غنائهن العربي وطاف الكنائس ايضاً وشاهد الراهبات فيها والنساء الصليبيات والروميات ووصف كلًّا منهن ابدع وصف واعذبه في مقطعات وقصائد له دعاها :

الغربيات

وهذا نص ما كتبه في مختاراته منها في مجلده بالحرف وقد روينا بعضاً منها في مقالتنا السابقة «النساء الفرنجيات في عهد الصليبيين» (المشرق ١٩٤٩، ج ٢:٥١—٣) قال عند دخوله انطاكية ومرّه بالمواصم يذكر مواضع استحسنها وهي الغربيات (ص ٦١)

فمن ذلك :

كم بالكنائس من مبتلّة ... مثل المهاة يزينها . الخفر
من كل ساجدة لصورتها ... لو انصفت[1] سجدت لها الصور
قدّيسة في حبل عاتقها . طول وفي زنارها قصر
غرس الحياء بصحن وجنتها ... وردًا سقى اغصانه النظر
وتكللت عنها الجفون فلو ... حاورتها لاجابك الحور
وجلت مدارعها غدائرها ... فاراك ضفي ليله قمر

ومن ذلك في المكشوف احد هياكل انطاكية :

كم لي بانطاكية من هوى ... لا انثني عنه بتعنيف
اذ لا أجيل العين الا على ... جيش من الآثار مصفوف
من كل بيضاء مسيحية ... ما عندها البدر بموصوف (٦٣)

---

١) في خريدة القصر للعماد الكاتب : لو انصفت .

تجري ثنايا‌ها المآقي فما تلحظ طرفاً غير مطروف
فالعين خوف العين مصروفة عنها وما القلب بمصروف
هذا وكم وجه كشمس الضحى بالميكل المكشوف مكشوف

ومن ذلك يصف انطاكية :

واحربا في الثغور من بلد يضحك حسناً كأنه ثغر
به قصور كأنها بيع ناطقة في خلالها الصور
هالات طاقاتهن آهلة يبسم عن كل هالة ثغر
سوافر كلما شمرن بنا برقعهن الحياء والخفر
من كل وجه كأن صورته بدر ولكن ليله شعر
فهو اذا ما الدلّ حاربه كان لتلك الضفائر الظفر
فيا عذولي فيهن دع كلفي وانظر الى الشمس هل لها ظُرَر (٦٣)
وكن معيني على ذوي خدَعٍ إن سالم القلب حارب النظر
سرتُ وخلفت في ديارهم قلباً تثبت انه بصر
ولم ازل اغبط الغمام بما للقرب حتى غبطت من أسروا

ومن ذلك :

أمُظمئةَ الصليب وددت اني وديني الله عندكم صليب
اذا اقبلت قبّلني حبيب أسرّ به وعانقني حبيب
وهل بيني وبين العود فرق يُرى الا التفجع والنحيب
هبيني صورة نُحنا عليها أجيب اذا دُعيت ولا تجيب
فلم يسمع باطرف من فتاة من الرهبان قوتها اديب
فلو قدّيسها ناجاه لفظي لامسى والصليب له نسيب (٦٤)

ومن ذلك :

ماذا باطراف الشَعر من بارق على ثغر
وما بانطاكيّة من بشر يبي البشر
وكم بها من فتنة تلقاك في الف قر
من ظبية تأنفها ينظر من عينَي ذكر
واغيد تذكيره له من العين الحور
حتى اذا اجلتَ في تلك الديارات النظر
لم ترَ الا صوراً ساجدة الى صور
سبحان من ابدعها جند القضاء والقدر

ومن ذلك :

. . . رى في الثغور من الثغور وفي نحر العدو من النحور

... غصة باسمك عقودا ففي افواههم في الصدور (٦٥)
على اردانها قضبان بان غبس فاتنات اللحظ صور
اذا اتصلت فاقطار الدراري وان مالت فافلاك البدور
فلو منطقتها بلى يديها حرت تلك الخصور على الخصور
سمن بن سكنّ بيوت شعر فامرزن المحاسن في الشعور
واسجن النواظر في وجوه مترّهة الحدود عن الحدور
تريك الحسن غير مبرقعات الا ما في البراقع من غرور
فلو خادعت طرفك لم تعرّج به الا على أثر منير
قدعني من منازلة البوادي فلي شغل بسكّان القصور

ومن ذلك :

لقد فتنتني فرنجيّة نسيم البير جا يبق
ففي ثوجا غصن ناعم وفي ناجها أثر مشرق (٦٦)
فان تلكُ في عينها زرقة فان سنان القنا ازرق

ومن ذلك في كنيسة القسيان :

يا غزال الشعور بالقسيان انت من غال ذكره نسياني
اسأل الساعات عنك نهارا فاذا الليل جنّ جُنّ جناني
كيف يصغي الى السلوّ جماحي يسدما اطلق الغرام عناني
حبذا يوم باكرتنا الزنا نير ترينا القضبان في الكثبان
وعلى موقف الاساقف ظبي يفترس الأسد من بني الغرسان
غصن نابت من المرمر المنضو د في غير منبت الاغصان
اخرته النفوس عن.. الصد ر وحطّته في صدور الاماني
..... علىّ به الدهر فيا هل لذلك اليوم ثان (٦٧)
فارى من اراني الشمس شمّا سّا على الارض تالي الالحان

وقال في كنيسة السيدة وهي قبة شاهقة البنيان عجيبة الوضع لنصارى نطاكية خاصة دون الافرنج :

اني رأيت بانطاكية عجبًا معرّس الفكر فيه غير مشترك
على اسم مريم فيها هيكل سلف سماؤه ذات انوار من الحبك
تحوي اذا اذّن الناقوس معركة لعسكر الحسن فيها اي معترك
ناهيك من صورة تنو لصورتها حسنًا ومن ملك يومي الى ملك
لما رأيت بها الاقمار طالعة عجبت كيف اقاموا قبة الفلك (٦٨)

ومن ذلك فيها ايضاً :

أصاح متى عُجتَ بالسيدة قبلْ عن فؤادي ا تبده

وقلكَ حذّره من ان يبـا دَ فان بها للهوى مصيده
وجوه تباهي قناديلهـا بهجة نيرانها الموقده
ترى كل مستضعف خصره اذا ما دعا طرفه الخده
وذات روادف عند المبا م تحسبها انها متئـده
وبدر من الشعر في غاسق يضاحـك ابيضه اسوده
فيالي من ذلك الزبرقا نِ اذا زرفن الليل او جعده
عل حيال اذ ما رأيت اسرده قلت ما اسرده
سرّح عين كخيل الظبا تعالج غـادته اغيده
بـه كل نشوانة لحظها يطرّق بين يدي عربده
صوارم قاطعة في الجفو نِ فهي مجرّدة مغمده (٦٩)
فها انا من في سبيل الغرا مِ اوردته الحب ما اورده
فهل لدمٍ فات من طالب وهيهات اعجز يوم غده
وكيف يجازى بقتل النفو س من لم يمدّ اليها يده

ومن ذلك في بربارة وهي كنيسة للافرنج خاصة :

فديتكَ يا قسّ بربارةٍ وما بتّ تتلوه في الجندس
أجرني من الصور الناطقا تِ متقن حولك في مدرس
اذا منّ اقبلن وقت الصلا ة في كل لون من الاطلس
وجالت مناطق ارساطها وضاقت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل ارداقها فيا لي من ذلك المجلس
فلولا التحرّج في ملتي طلعت عليهن في برنس (٧٠)
وقمت ألحّن قـدامهنّ م غير بليد ولا اخرس
ولم تكُ فرساخا في الطبا نِ باشجع مني ولا افرس
الا حبذا ما استثار الهوى بتلك الكنائس من كُنّس
ترى كل فاتنة وجهها معرّى بشمس الضحى مكتس
تكاد التماثيل من حسنه تنور بساطة الانفس
فربّية ساكن عقدهـا وزنارهـا قلق المجلس
اذا قبّلت صورة اقبلت عليها بناظرها الاشوس
فيا ليتني عندها دمية تراني ولا ريب في ملمسي
فأقسم لو انني استطيع تحولت صورة من جرجس (٧١)

ومن ذلك في اشمونيث وهي للفريرية والنصارى :

لو كنت ثالثنا باشمونيثا حتى ترى التوحيد والتثليثا
لرأيت منا اعيناً طمّاحة تستحسن التذكير والتأنيثا
... محض يجاذب ودفه فكأنه احتلب الرمال الميثا

ومهفهف لعب الصبى بعوامه حتى توهمت الشباب حديثا
لما سألت غزالة عن ريقه ملأ الزجاجة ثم جاء حثيثا
قلت اسقني من ذيك ان رضابه قد رد اطيب ما حملت خبيثا
قال اعتبر قرع المزاج نسيبه ما عند ثغري تهم الثالوثا
وبدا يناظرني به عن دينه فقطعت ليلا بالجدال مكيثا
فخ ى عيسى بالصلاة واعطني لوطا وتذكرنا المدامة شيثا
والبدر مبتسم كوجه خريدة قرنت به فرعا عليه اثيثا
يا ليلة افردت طرفي فجرها عنقا يكون به المطيّ حديثا (٧٢)

ومن ذلك في دير سمعان وهو على فرسخين من انطاكية لهم به اجتماع في عيد الصليب :

يا هل سمعتم بدير سمعان وما به للعيون من عان
أموقف للصلاة هيكله ام منبت من منابت البان
في كل غصن تفاحتا خجل تلفاك من مثله بستان
من ذات بشر يلوح في بشر وذات جان علا على جان
يرمي فيصمي عن غير فاطنة ما كل قوس ترمي بزنان
في ليلة لم تزل ... حرقي تلفح نيرانهم بنيران
كأن بهرام من توقدها بات زعيماً بحرب كيران
نار ونور كأن انسها في الليل ما آنس آل عمران (٧٣)
حتى اخجل الصبح في كتائبها عن كل نشوانة ونشوان
تسجد للشمس وهي معرضة في الافق عنه بوجه غيران
وانصرفوا والفؤاد اقسدة مع كل نصرانة ونصران
يا حسن عيد الصليب لو ان كان الدهر فيهم اعياد صلبان

ومن ذلك في جارية من مولدات انطاكية اسمها ماريا من احسن الناس خَلقاً وخُلقاً تغني بالدف ومن اصواتها التي تغايظ بها النصارى وتستميل قلوب المسلمين :

علقت بجبل من حبال محمد امنت به من طارق الحدثان

تعني النبي صلى الله عليه وسلم

ألا يا غزال الشرهل انت منشدي علقت بجبل من حبال محمد (٧٤)
ويا هل لذاك اليوم في الدهر ليلة تعود ولو عادت عنيا بلا غد
فالقاك فيها هادي الكأس حاديا وحبك من ساع بها ومغرّد
الا حبذا عاري المحاسن عاطل محلّى بانواع الملاحة مرتد
اذا ما الاماني ما طلتني بوعدها ذكرت له وصلا على غير موعد

وقد نام عنا الدهر حتى كأنه عداة التقينا بات شارب مرقد
فيا حسن ذاك الوجه اذ ريع روعة تعوّذه منها بتصليبة اليد
وعهدي بماريا بسفى الله عهدها بما عندها من حاجة الهائم الصدي
وفي ذلك الزنار تمثال فضة تنقط خديه العيون بمسجد
وقد غلب المصباح منها على الدجى سنا قمر في جنح ليل مجسّد
وكنت اذا عفت الزجاجة موردًا سقتني رضابًا في اناء مورد
فيا لي من وجه كقنديل فضة عليه من الصدغين محراب مسجد (٧٥)
لقد اسرتني حيث لا ابغي الفدا فقل في اسير لا يسرّ بفتد

ومن ذلك فيها :

اذا ما زرت ماريا فما مدى وما رَيّا
فتاة كقضيب البان يثنيها الصبى طيًّا
تلوّى كالمواعيد اطالت عمرها ليًّا
لها وجه مسيحيّ ترى الميت به حيًّا
اذا ما قابلته الشمس لم تبصر له فيًّا
فيا احسن من اعرض ادلالًا ومن حيًّا
اتنسين وحبك فتى قلت له هيًّا
فلو يظر وسم الحبّ ابصرت له كيًّا
هوى الّا يكن رشدا فما احسنه غيًّا (٧٦)

ومن ذلك في خمارة بجسر الحديد على باب انطاكية :

ان كان لا بد من السكر فمن يدي خمارة الجسر
خمارة تطلع من نحرها جمّارة بيضاء من خمر
تمشي فتسبي الراح في راحها تمديمنا الشمس الى البدر
حتى اذا دارت على شربها الحاظها اغنت عن الخمر
ما زرتها الا وباتت يدي اولى من الزنار بالخصر
وبت اسقى من جنى ريقها كأسًا من الشهد على الشهر

ومن ذلك :

واحيائي وقد مرّت بهم من مسيحية دعتني بعمي
ابن عصر الشباب ايام اد عوها صبيًا بجدتي وبامي (٧٧)

ومن ذلك :

عرّجا بالاثارب كي اقضّي مآربي
واسرقا نوم مقلتي من جفون الكواعب
واعجبا من ضلالتي بين عين وحاجب

رب كأس حسوت من ثغر الجانب
اسكرتني وما ثمالي سألي القران

ومن ذلك وقد اجتاز بعزاز من ضواحي حلب وهي مع الافرنج :

اين عزّي من روحتي عزاز وجوازي على الظباء الجواري
واليمانير ساحبات النفا فير علينا كالربرب المجتاز
بعيون كالرهفات المواضي وقدود مثل القنا الهزّاز (٧٨)
وغور تقاسمت ثغور ريقها ذوب سكر الاهواز
ووجوه لها نبوة حسن غير ان الإعجاز في الأعجاز
كل خمصانة ثنت طرف الز نار من نكبة على مواز
ذات خصر يكاد يخفى على القا رئ منه مواقع المهاز
لاحظتني فانقضّ منها على قلبيّ طرف له قوادم باز
وسبتني لها ذوائب شعر عقدتها ناجاً على ابرواز
من معيني على بنات بني الاصفر غزوًا فانني اليوم غاز

ومن ذلك :

احبن سالي في السلوّ سبيل توكل لي بالاختبرين(١ وكيل
اغنّ ضعيف الحصربين جفونه من اللحظ ماضي السفرتين كليل
له خيمة بالتلّ غير وخيمة يفيء لها ظل عليه ظليل (٧٩)
تدافع عنه غيرة الشمس بالضحى والظبي في ظل الكناس مقيل
يقولون لي نوم الطيل مشرّد فلم نال منه الطرف وهو طيل
يسائلني ما حاجتي وهو عالم ورب جواب ما اليه سبيل
واطمع منه في الوصال ودونه دلال على الهجران منه دليل
متى سمحت عين لعانٍ بفدية فلا فانني من ذا الجمال جميل

ومن ذلك في مولّد من مولدي الافرنج ابصره بياعو من بلاد الشمال :

وشحنة كالهلال في ياعو عيناه جند له واتباع
والٍ والبانيا ولايته ومُقطَع والقلوب اقطاع
اذا بدا اذعنت له حدق وان شدا ملكته اسماع
يحسّ اوتار عوده بيدٍ ابقاعها بالنفوس ايقاع (٨٠)

قال وقد اقترح عليه الوزن والمعنى :

لا تخدعنّ فا الحسام المرهف الا الذي يملوه جفن اوطف
واذا رأيت الطرف يسل في الحشا عمل الاسنّة فالنوام مثقف
ويح المحب اما يخالس نظرة الا هفا بالقلب ظبي اهيف

١) الاختبرين من قرى حلب

بالله يا نفحات انفاس الصبى ما بال غصن البان لا يتعطف
يا سُكري وجدًا بكاس جفونه قل لي اتلك لواحظ ام قرقف
يادر جمالك بالجميل فربما ذوت الملاحة او أبلّ الموقف
واسبق عذارك باعتذارك قبل ان يأتي بمزل هواك منه ملطف

وقال ايضاً :

يا عارضًا نفسه وعارضه يضرب دون الوصال بالحُجُب
ابنت منه لسلوتي سببًا يا هاجري قبل ذا بلا سبب (٨١)
فالقَ به قطع كل ذي صلة هذا كسوف بمقلة الذنب

وقال :

اودعتكم قلبي وودّعتكم لا آمن البعد على قلبي
وعدت ادعو الله في قربكم وقد أُجيبت دعوة الترب
فاعتبروا مشتاقكم في الهوى هل زلّ عنه خاتم الحب

وقال ايضاً :

من لقلب بألف الفكرا ولعين ما تذوق كرى
ولصبّ بالغرام قضى ما قضى من وصلكم وطرا
ويح قلبي من هوى ثمر انكرت عيني له القمرا
حالفت اجفانه سنة قتلت عشاقه سهرا
يا خليلي اعذرا دَنِفًا يصطفي في الحب من عذرا (٨٢)
وذراني من ملامكما ان لي في سلوتي نظرا

وقال ايضاً :

كلما خالسته نظري رد جفنيه على حَوَر
وابلائي من مفوقة ليس ترمي الغاب عن وتر
كيف لا تصمي واسهمها واقمات من يد القدر
بأبي من في عمامته ثمر في هالة القمر
يا عديل النفس محتملًا وتزيل الطرف في الحضر
انت من هذا المحل وذا ابدًا في وحلتي بشر

وقال ايضاً :

ويلاه من قلبه صخرة في زند قلبي ابدًا قادحة
كأنما كأس جنى ريقه بعد الكرى نافجة نافحة (٨٣)
تالله هل في خده جمرة ام جمرة ام جمرة لافحة
لو لم تكن مقلته في الحشا جارحة ما سميت جارحة
تمضي صلاتي كلها باسمه فلا تصل عن سورة الفاتحة (٨٤)

هذا آخر ما اختاره محمد بن نصر بن صغير القيسراني من شعره